

رسائل الخراز

أبو سعيد الخراز

٢ : ٢٨٦ هـ

المكتوف سمع السائل

حياته :

أبو سعيد ، أحمد بن عيسى الخراز ، صوفي من أركان المدرسة البغدادية في التصوف التي ترأسها الجنيد والنوري والشبلي . قال عنه الخطيب البغدادي . كان أحد المذكورين بالورع والمراقبة وحسن الرعاية والمجاهدة ^(١) . وقال عنه أبو نعيم الإصفياني : سيد من تكلم في علم الفناء والبقاء ^(٢) أما أبو عبد الرحمن السلمي فيرى أنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء ^(٣) وأنه ، أحسن القوم كلاماً ما خلا الجنيد ^(٤) . وهو عند الكللاباذي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ « لسان التصوف » ^(٥) وقد عدّه فيمن نشر علوم الإشارة كتباً ورسائل . أما عبد الرحمن الجامي فيرى أنه « ما كلف أحد فوق الخراز ، هو في غاية

(١) تاريخ بغداد ٤ / ٢٧٦ (٢) حياة الاولياء ١٠ / ٢٤٦

(٣) طبقات الصوفية ٢٢٨ (٤) شذرات الذهب ٢ / ١٩٢ (٥) التعرف ١١

لابي سعيد الخراز وجهة نظر في الشريعة تتفق على ظاهرها مع وجهات نظر المدارس
الفقهية الاسلامية ولا تخلو من تعارض مع القسري والترمذي^(٢) وفي مسائل معينة تقرب
كل القرب من الغنوصية الشيعية المتمثلة في الحروفيين^(٣) مات في القاهرة سنة ٢٨٦ هـ وفي
موته أقوال تجدها عند الخطيب البغدادي^(٤) . بعد أن هاجر إليها من بغداد هرباً من غلام
الخليل^(٥) الذي اتهم صوفية بغداد بالزندقة ، ولولا حكمة القاضي اسماعيل بن اسحاق لذاق صوفية
بغداد ما ذاق الخلاج من بعد . ويبدو أن العيش في القاهرة قد راق للخراز لما وجدته من أمن
ومريدين فاستقر هناك ومعه استقرت معالمه في مدرسة أبي الحسين بن بنان الذي يقول
فيه السلمي « صحب ابا سعيد الخراز واليه ينتمي » و « كان ابو الحسين يتواجد وأبو سعيد
الخراز يصفق له »^(٦) . ويبدو ان هذه المحنة قد شئت شمل صوفية بغداد ، فأبو سعيد
الخراز رحل الى مصر ايام هذه المحنة^(٧) وأبو الحسين النوري اقام بالرفقة سنين متخطياً عن
الايناس^(٨) وأبو حمزة البغدادي الصوفي وأبو بكر الدقاق أخذوا يسبحان في الأرض ولم
ينج من التشريد الا الجنيد لانه « استتر بالفقه على مذهب أبي ثور »^(٩) والغريب أن
مشير هذه المحنة هو غلام الخليل « وهو من اعلام صوفية بغداد »^(١٠) اتهمهم فيها ، على
ما روى ابن الجوزي ، بالزندقة لأن ابا الحسين النوري قال « أنا اعشق الله والله يعشقني »^(١١)
او على ما روى أبو عبد الرحمن السلمي « لأنهم يرفضون الشريعة »^(١٢) ولعل ابن الجوزي

(١) نجات الانس : ورقة ٤٤ أ

(٢) لمعرفة تناط التعارض انظر : داسيون 513 Essai 302

(٣) تاريخ بغداد ٤ / ٢٧٨ (٤) قارى الدمج ٨٩

(٥) تعرف هذه المحاكمة بحمن الصوفية ، حاية ١٠ / ٢٤٩ ، احياء ٢ / ١٥٢ ، عوارف المعارف

١٧٩ ، اراج للوك ١٥٥ ، تليس ابليس ١٧٢

(٦) طبقات الصوفية ٢٨٩ (٧) نجات الانس ورقة ٤٤ أ (٨) حاية الاواباء ١٠ / ٢٤٩

(٩) تليس ابليس ١٧٢ (١٠) التمهيد ١٨٦

(١١) تليس ابليس ١٧٢ (١٢) آداب الصعبة وحسن العشرة ٤٧

الحنبلي وهو من أشد أعداء المتصوفة حماسة قد حرف قول النوري تهكما منه . فان المروي عن النوري ، أنه قال « انا احب الله والله يحبني » مقتبساً قوله تعالى « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » ويظهر أن غلام الخليل كان من المقربين لسلطة فان كثيراً من الروايات تصوره صاحب شريطة يطارد الصوفية ويتسقط زلاتهم بل ويتسبب في موتهم هلعاً (١) وحكايته مع سمنون المحب أعجب من تصوفه (٢) .

حاول الخراز كثيره من صوفية بغداد التقریب بين التصوف الذي فقد سحره وطابعه الزهدي عند الناس وبين المذاهب الفقهية ، أو بالمصطلح الصوفي ، بين الشريعة والحقيقة ، فاصراً على أن ليس للشريعة وجهان : ظاهر وباطن وان « كل باطن يخالف ظاهراً فهو باطل » (٣) اما صديقه الجنيد فيقول « الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتضى اثر الرسول - عليه الصلاة والسلام - واتبع سننه ووزم طريقته » (٤) اما النوري فيوصي بعض اصحابه « من رأيت يدعي مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقر به منه » (٥) وأبو محمد الجري ، تلميذ الجنيد ، يقول « رؤية الاصول باستعمال الفروع وتصحيح الفروع بمعارضة الاصول ولا سبيل الى مقام مشاهدة الاصول الا بتعميم ما عظمه الله من الوسائط والفروع » (٦) . بالرغم من هذا الاصرار على ان الحقيقة هي الشريعة اتجه صوفية بغداد بعد محاولات غلام الخليل ومقتل الحلج الى نشر تعاليمهم بين خاصتهم بطرق سرية فاتخذوا « عبارات تفردوا بها واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم » (٧) وحرصوا كل الحرص على هذه السرية فالجنيد لا يقبل اكثر من عشرين مريداً

(١) قال غلام الخليل : رأيت فقيراً يمدو ويثقت ويقول : أشهدكم على الله عز وجل . . وسقط ميتاً . تلبس ابليس ٢٦٣ . وقد وم ابن الجوزي فثن قول « أشهدكم على الله » بتخفيف الياء في عبي ويظهر أن الفقير هرب من غلام الخليل وسقط ميتاً بالسكة خوفاً وهلعاً

(٢) انظر كشف المحجوب الترجمة الانكليزية ١٣٧

(٣) طبقات الصوفية ٣٣١ ، مناقب الابرار ورقة ١٥ أ .

(٤) طبقات الصوفية ١٥٩ (٥) حنية الاولياء ١٠ / ٢٥٢

(٦) طبقات الصوفية ٢٦٣ انظر كذلك تلبس ابليس ٢٦٧ (٧) التعرف ٨٠

في بيته حيث يقفل الباب ويضع المفتاح تحت وسادته^(١) والخراز يؤلف كتاب الصديق للصوفية فقط وهو يحذرهم من ان يقع هذا الكتاب بيد من لا يفهم مقصوده^(٢)، ويحشى الجنيد أن يفصح في رسالة لصديق له لأن رسالة له فتحت في اصبهان فأسيء فهمها^(٣) والنوري يخاطب الجنيد وقد رآه متصدراً احد المجالس « يا ابا القاسم ، لقد كتبت الحقيقة عن الناس فصدروك وأنا اخبرتهم بها فخصبوني^(٤) ولعل مصدر هذه السرية في التعاليم يعود - على رأي السراج - الى كثرة التشبهين بالصوفية وليسوا منهم فاتجهوا الى الانعزال غيرة منهم على التصوف^(٥) ، او لأنهم اشفقوا ان يفهم كلامهم على غير مدلوله . وهنا يؤكد الجنيد في رسالة لصديق له على مخالفة الناس بما يعقلون فيقول « وبالخلق حاجة الى الرفق وليس من الرفق بالخلق ملاقاتهم بما لا يعرفون ولا يخاطبهم بما لا يفهمون^(٦) » وفي مناسبة اخرى مع ابي بكر الشبلي كتب له « الله . . . الله في انخلق ! كنا نأخذ الكلمة فننشقها ونقرضها ونتكلم بها في السرايين وقد جئت انت تخلعت العذار^(٧) » . لهذه وغيرها بالغ كتاب للمتصوفة كالكلاباذي والسراج والمكي والسلمي والقشيري في محاولاتهم لبيان أن التصوف لا يعني فقط شدة العناية بالدين غنى ظواهره ورخصة بل مراعاة أحكام الشريعة بشدة دونها شدة التعصب ايضاً إذ إن التصوف هو الأخذ بالأحسن والاتم احتياطاً للدين وتعظيماً لما امر الله به عباده واجتناباً لما نهىهم الله عنه وليس من مذهبهم التزول على الرخص وطلب التأويلات . ومع كل هذا الاصرار وهذا التحفظ فأركان مدرسة بغداد لم يسلموا من تهمة الزندقة والحلول . يروي ابن الجوزي نقلاً من كتاب اللمع للسراج قوله : « وأنكر

(١) قوت القلوب ٢ / ٣٠ ، احباب ١ / ٤٢

(٢) اللمع ٢٤٠

(٣) انظر مقدمة نادر الكتاب البرفسور آربري

(٤) كشف المحجوب الترجمة الانكليزية ١٣١ : انظر قوله الآخر للجنيد : يا ابا القاسم غشيتهم

فابلسوك على المنابر ونصحتهم فنباسوني على المزابل التعرف ١١٢

(٥) اللمع ٣ « . . . كثر التشبهون بأهل التصوف وانشبهون الى العاريفة والمجيبون عنها وعن مسائلها

وكل واحد يضيف الى نفسه كتاباً قد زخره وكلاماً قد تكلفه وجواباً قد ألفه . . . »

(٦) اللمع ٢٣٤

(٧) اللمع ٢٤٠

جماعة من العلماء على أبي سعيد الخراز ونسبوه الى الكفر بألفاظ وجدوها في كتاب صنفه وهو كتاب السر ... وأبو العباس احمد بن عطاء نسب الى الكفر والزندقة وكم من مرة قد أخذ الجنيد مع علمه وشهد عليه بالكفر والزندقة وكذلك أكثرهم (١).

لا يخلو كتاب في التصوف من قول للخراز أو رواية رويت عنه ، ومع أن كثيراً من المصادر قد ترجمت له فنحن لا نجد شيئاً عن حياته الأولى ولا عن حياته بآية صورة وبالرغم من كثرة هذه الأقوال والروايات فالظلام يكتنف شخصية الخراز . بيد أن هذه الشذرات المتبعثرة إن لم تفدنا في استجلاء الغامض من حياته فإنها تلقي ضوءاً على علاقاته بصوفية عصره في شتى أقطار العالم الاسلامي إذ ذلك .

تحدثنا المصاحران ابا سعيد الخراز كان دائم التجوال كثير السياحة فيذكر أبو عبد الرحمن السلمي أنه « كان يسافر مع أبي تراب النخشي وابي حمزة الخراساني (٢) . و ابو نصر السراج يروي لنا أن الخراز قال « ذكر لي أبو حاتم العطار وفضله وكان بالبصرة فرحلت اليه من معبر » (٣) . وابن خنيس الكعبي يروي « قال أبو القاسم بن مروان النهاوندي قال : كنت أنا وأبو بكر الوراق مع أبي سعيد الخراز نمشي على ساحل البحر نحو صيدا » (٤) والقشيري ينقل عن السلمي « أت يوسف بن الحسين الرازي رافق الخراز » (٥) وروايات اخر تصور مرة في الرملة ومرة في القدس ومرات في البادية ومرات سائحاً بين مكة والعراق كل هذه الروايات تقودنا إلى حقيقة مدرسة بغداد في التصوف ، فمن أعضائها من كان دائم السياحة كثير التجوال كابي حمزة والنوري وابن عطاء والخراز ومنهم من آثر الإقامة على السفر كالمحاسبي والجنيد والسري السقطي ومنهم من سافر في ابتداء اموره في حال ابتداء شبابهم ... ثم فعدوا عن السفر في آخر احوالهم كالشبلي » (٦) .

الشيء الوحيد الذي يتصل بحياته في بغداد هو النسبة التي يحملها ، هذه النسبة الى خرز

(١) تليس ابليس ١٦٩ (٢) طبقات الصوفية ٣٢٧ (٣) الفم ١٨٠

(٤) مناقب الأبرار (ورقة ١٦ ب) (٥) الرسالة القشيرية ٢٤

(٦) الرسالة القشيرية ١٣٠

الجلود كالترب والسطح وغيرها»^(١) كما يقول ابن الاثير فيكون قد تعلمها ليكسب قوت يومه أو ليشغل نفسه التي شغلته كما يقول الخراز نفسه فهو قد تعلم خرز الجلود وخرز الأختاف . يروي أبو نصر السراج انه « خرج في سنة من السنين من الشام الى مكة مع القافلة فجلس الى الصباح يخرز فعال اصحابه من الفقراء والصوفية»^(٢) وذكر ابن نعري بردي ان الجنيد قال : « لو طالبتنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد الخراز هل لكنا . فقيل له : وايش كان حاله ؟ قال : اقام كذا وكذا سنة يخرز ، ما فاتته ذكر الحق بين الخرزتين»^(٣) . فابو سعيد كان خرازاً : أي حذاءً أو اسكافاً لا كما فهم الدكتور علي حسن عبدالقادر^(٤) فقال : إنه كان نساكاً إذ يروي عبدالرحمن الجامي انه « كان يخرز الخف وينسكه ، فقيل له ، ما هذا ؟ قال : اشغل نفسي قبل ان تشغلني»^(٥) . اما الجواب الاخرى من حياته فهي مجهولة ولم استطع أن اعثر فيما تيسر لي من المصادر على ذكر لمولده ، لعائلته أو لدراسته وقد اكتفى السلمي بقوله « وهو من أهل بغداد»^(٦) ، أو « بغدادي الأصل»^(٧) ، وكل ما ذكر عن دراسته « انه كان تلميذاً لمحمد بن منصور الطوسي»^(٨) و « حدث عن ابراهيم بن بشار صاحب ابراهيم بن ادم»^(٩) و « صحب ذا النون المصري و ابا عبيد البصري والسري السقطي وبشراً الحافي»^(١٠) و وزاد السلمي « و ابا عبيد الله التبايجي»^(١١) . ومن تلاميذه أبو القاسم

(١) اللباب في تهذيب الانساب ١ / ٣٥٢ انظر كذلك نصح التتبع بتحرير المشابه ٣٣٠ .

(٢) الدع ١٩٦ (٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦ .

(٤) انظر كتابه عن الجنيد بالفرنسية الانكليزية من ٤١ وفي الكتاب اخفاء وهنات في مواضع متعددة منه .

(٥) نفعات الانس ورقة ٤٤٤ أ . (٦) طبقات الصوفية ٢٢٨ .

(٧) شذرات الذهب نقلا من تاريخ الصوفية الضائع ٢ / ١٩٢ .

(٨) نفعات الانس ورقة ٤٤٤ أ . انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٣ / ٢٤٧ .

(٩) المنظم ٥ / ١٠٥ انظر ترجمة ابراهيم بن بشار في تاريخ بغداد ٦ / ٤٧ وروايات الخراز عنه وعن غيره في طبقات السلي ٢٨ ، ٣٥ .

(١٠) نفعات الانس ورقة ٤٤٤ أ . (١١) طبقات الصوفية ٢٢٨ .

ابن مروان وقد صحبه اربع عشرة سنة^(١) ، وعلي بن محمد المصري^(٢) وقد روى عنه .
 وقد انفرد الخطيب البغدادي برواية ، ان من جملة تلامذة الخراز تلميذة كانت تسمع منه
 من وراء ستر لم يشأ أن يذكر لنا اسمها^(٣) . وتضيف بعض المصادر أن ابراهيم بن سعد
 العلوي صحب الخراز في سياحته^(٤) ، وانحدر لنا في بعض الروايات انه كان متزوجاً وله ابن
 صوفي مات قبله أسدي لوالده انصح في منام^(٥) فالخراز لم يوافق آراء بعض صوفية
 بغداد في الامتناع عن الزواج .

الفناء والبقاء عند الخراز :

يكاد يجمع كل من ترجم لأبي سعيد الخراز على رواية واحدة وهي « انه اول من
 تسكلم في علم الفناء والبقاء » أو « سيد من تسكلم في علم الفناء والبقاء » فما معنى الفناء
 والبقاء ؟ يحدثنا أبو بكر الكلا بذي القنوف سنة ٣٨٠ هـ ان الفناء هو « ان تفنى الحفظ
 فلا يكون له في شيء ، من ذلك حفظ ويستقطع عنه التمييز ، وهو فناء عن الاشياء كلها شعلاً بما
 فنى به ... والحق يتولى تصريفه فيصرفه في خائفه ومواقفاته فيكون محفوظاً فيما لله عليه
 مأخوذاً عما له وعن جميع المخالفات فلا يكون له اليها سبيل وهو العصمة ... والبقاء الذي
 يعقبه هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله »^(٦) ولو تفحصنا الشذرات المبعثرة لأقوال الخراز
 في كتب الصوفية لوجدنا أنهم اترمووا الحذر والحيطه في اختيار ما لا يساء فهمه خذ مثلاً

- (١) تاريخ بغداد ٤ / ٢٢٨ سماه ابن وردان وفي مكان آخر سماه ابن مروان ٤ / ٤٠٠ والقشيري
 والسراج يسميه ابن مروان النهاوندي ، الرسالة ١٢٧ . الفج ٢٨٨ وابن خيس الكمي يسميه : ابن
 مردان ورقة ٢١٧ ب انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١١ / ٤٠٠ .
 (٢) للفظظم ٥ / ١٠٥ انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٤ / ٧٥ .
 (٣) تاريخ بغداد ٤ / ٢٧٧ .
 (٤) كشف المحجوب فالدرجة الاكبرية ٣٦٤ ، تاريخ بغداد ٦ / ٨٦ .
 (٥) طبقات الشعرا ١ / ١٠٢ وذكر ابن الأثير ولده سعد في انه سأل والده ان يعطيه دانقاً
 فقال : لو أحب أبوك أن يركب المراك الى بابك لما تابوا عليه (البداية والنهاية ١١ / ٥٨) .
 (٦) الصرف ٩٢

السراج الطوسي فإنه أورد كثيراً من أقوال الخراز منها قوله في الفناء : « أول علامة التوحيد خروج العبد عن كل شيء ، ورد جميع الأشياء الى متوليها حتى يكون المتولي بالمتولي ناظراً الى الأشياء قائماً بها متمكناً فيها ثم يخفيهم في أنفسهم من أنفسهم ويميت أنفسهم في أنفسهم ويصطنعهم لنفسه فهذا أول دخول في التوحيد من حيث ظهور الديمومية » (١) ويحاول السراج بما أوتي من قدرة منطقية فقهية ان يقنع القارئ ان مراد الخراز يختلف عما ذهب اليه انماظله فيستعمل الشرح الطويل فينتهي ترجمة الاحكام عنه ، والكلاذبي يورد قوله في الجمع : « الجمع أنه أوجدهم نفسه في نفسه بل أعدمهم وجوده لانفسهم عند وجودهم له (٢) وقولا الخراز يبينان بصراحة رأي الخراز في الفناء والبقاء الذي سنأتي اليه بعد قليل .

الصوفي يعتقد أنه اختير ليكون صوفياً والا لأصبح الناس كلهم صوفية وان الحق اختاره من خلقه لتحمل الاعباء والمجاهدات وقد لا يسبق هذا الاختيار مقدمات اذ ليس كل عابد موغل في العبادة مؤهلاً للاختيار فقد يصبح المعنى صوفياً والنصراني من الأبدال وقد يتسلق ابن العامة خطوات الطريق ليصل الى مرتبة الاوتاد دون ان يكلف نفسه عناء الطريق . . . اذ تلك مشيئة الاختيار ، ومع اعترافهم بهذا فقد اصطالحوا على خطوات اختلفوا في عددها واسماؤها سموها (المقامات) وعلى حالات شمورية الهامية سموها (الأحوال) ، فاذا ما اصطنع الحق انساناً لنفسه حرك الشوق اليه في قلبه فيه تليء بالحب ، وهنا أول الطريق ، ولان « المحبة ميل القلوب » (٣) فانها توجب الشوق والشوق يوجب الانس ومن فقد الشوق والانس فهو غير محب (٤) ، ويحلو للخراز ان يصطنع المحب كاساً يذوق نعيم المشاهدة فيقول « طوبى لمن شرب كأساً من محبته وذاق نعيم من مناجاة الجليل وقربه بما وجد من اللذات بحبه قلبي قلبه حياً وطار بالله طرباً وهام اليه اشتياقاً ، فياله من وامق

(١) الجمع ٢٧٠ وانظر تفسير السراج ٢٣ - ٢٤ . (٢) التعريف ١٠

(٣) التعريف ٧٩

(٤) القول للواسطي صديق الخراز انظره في طبقات الصوفية ٣٠٣

أسف ، بوجه كلف دنف ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه»^(١) فإذا كان الشوق يوجب
الانس فانه من وجد الانس ينعم بالمشاهدة « فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه مادونه وتلاشى
كل شيء وغاب عنه وجود عظمة الله تعالى ولم يبق في القلب الا الله عز وجل »^(٢) وفي
مناسبة اخرى يكرر الخراز قوله السابق فيقول « فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين
العبد لا يبقى في سره ولا في وهمه غير الله تعالى .

الحسين بن منصور الحلاج قد قتل شر قتلة في بغداد لأمر ربه بها بعض المستشرقين
وبعض المؤرخين بالسياسة واسهام الحلاج في الدعوات السرية^(٣) لانه فاه بقولته المشهورة
« أنا الحق » ويبدون أن الخراز قد رأى بعين الغيب مصير الحلاج على الخشبة فاشفق على
نفسه فعمسى أقواله والا فانه قد قال ما قاله الحلاج لا على لسانه بل على لسان صوفي مستغرق
مستهلك من غلبة الحقيقة عليه : « ولو قيل له ما انت لم يكن له جواب من غلبة أقدار الله
عليه أن يقول أنا »^(٤) ولكنه يأتي الا التصريح الخافت فيقول : « وبعد كل ما ذكرته
لك غير ما أردته ولا اعرفه ولا ادري ما اريد ولا ما اقول ولا ادري من انا ولا من اين
انا فهل تعرف ايها المستمع ما اقول ... »^(٥) وقبل مقتل الحلاج بعشرين سنة يكتب
الخراز : « هو عبد قد ضاع اسمه فلا اسم له وجهه فلا علم له وعلمه فلا جهل له ثم قال :
واشوقاه الى من يعرف ما اقول ويدخل معي فيما اقول .. » (المخطوط)

وجاء الحلاج فباح بالسر الذي كتبه الخراز ولم يستطع الشبلي الا ان يصرخ بوجه
الحلاج وهو على الخشبة « ألم انبئكم عن العالمين »^(٦) واكتفى على حين يصر صديق الخراز
أبو العباس بن عطاء الأدي تلى موافقته للحلاج فيأمر الوزير حامد بن العباس بعقاب
الصوفي الكبير فينتزع خفه وينهال على شذقيه بالضرب حتى يسيل الدم من منخره ويكون

(٢) الدع ٦٨

(١) الدع ٥٩ ، ٦٤

(٣) Nicholson. The Idea of Personality in Sufism, P 41 ترجمها أبو العلا عفيفي

في كتاب « في التصوف الاسلامي ١٣١ » أنظر البداية والنهاية ١١/١٢١ ، ١٣١ .

(٤ و ٥) ورقة ٦٠ أ من كتاب العطاء (٦) البداية والنهاية ١١/١٣٢

هذا العقاب سبباً في موته . ويدعو الصوفي الكبير على الوزير بأن تقطع يده ورجلاه ويقتل شر قتله ويحدث أن تتحقق دعوة الأدي (١) . وكان الخراز اعطى بقول الشبلي تلميذ صديقه الجنيد « المحب اذا سكت هلك والعارف اذا لم يسكت هلك » (٢) فلم من القتل لانه سكت وهلك الحلاج لانه لم يسكت والا فآين العبدود بين قول الخراز : « اقتطعه قرب الله من ذكر الله فهو مع الله بلا وجود ، ذكر فلم يجدهم مدخلا فيما بين الله وبينه فاستلبه الهجوم على الله عز وجل عن وجود الله فسقط العبد وبقي الله عز وجل ؛ فالجالات منه بائنة وعنه واقفة » ... « ورد من الحقيقة على الحقيقة ثم ورد من الله على الله فلم يكن فيه فضل من الله لله » . (المخطوط : كتاب الصفاء) وبين قول الحلاج السابق فاذا كان فهم الناس لصرخة الحلاج « انا الحق » قد قصر عن ادراك ما اراد الحلاج فلانهم لم يتفهموا وينهلوا ولم يتعلموا بنياط عرى التوحيد ولم يعبروا الى نسيان العلم الذي تكلمه الصدور وتحويه العقول وتجنه المفهوم (٣) ، فما اخرى بهذا الفهم أن يعجز عن ادراك مراد الخراز . الاستغراق في الفناء هو أشهى ما يتمنى الصوفية لان الصلة بينهم وبين العالم الحسي المادي تُعدم واذا أُعدمت الصلة قربوا من الله عز وجل « وصار الفهم عنه غذاءهم ومجالسته ومحادثته أنيسهم ... » فاذا رجعوا الى عوالم المادة والحس ازداد حنينهم وكثر توجعهم لما فقدوه لأن الصوفي أنذاك قد « رأى من لم يره وسمع من كلام الله ما ليس له به عهد فيغلبه ذلك ... » . والصوفي هنا غريق التوحيد لا يدري ما الشريعة ولا الدين ولا يعرف رسماً من رسوم الظاهر فهو ابداً وله مستغرق فاذا دامت هذه الحال عند الصوفي فهي حال البقاء في الله بعد الفناء عن النفس . ومهما حاول كتاب الصوفية لاقتناعنا بسرد حكايات عن صوفية عادوا إلى إحساسهم السوي عند الفرائض واذا ما ادوها عادوا (٤) إلى الاستغراق

(١) البداية والنهاية ١١١/١٤٤

(٢) كتاب السر في انقاس الصوفية المنسوب لجنيد دار الكتب المصرية برقم ٧٨ ورقة ٧ أ

(٣) المخطوط - كتاب الصفاء

(٤) انظر كتاب التعرف ص ٩٦ الرسالة القشيرية ص ٣٦

فإن الخراز يقرر أن « المقرب على الحقيقة كأنه منظور إليه فهو مطلوب معلق لا علم له ولا فهم ولا ارادة ولا حس ولا حركة .. » وهذا أقصى درجات الاستغراق وهو ما يسمى عند الصوفية بالجمع وهذا مقام المعرفة فانه « من لا جمع له فلا معرفة له » (الرسالة التفسيرية ص ٢٥) ومن الجمع ينقل الصوفي إلى جمع الجمع وهو كما يروي القشيري « الاستهلاك بالكلية وفناء الاحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة » (ص ٣٦) ويقول الخراز في الجمع « إنه أوجدهم نفسه في أنفسهم بل أعدمهم وجودهم لأنفسهم عند وجودهم له » (١) . من هذا نخلص الى أن الجمع عند الصوفية يعني الفناء عند الخراز وجمع الجمع يعني البقاء عند الخراز « فالفناء هو ان تفتى عنه المحفوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حفظ ويسقط عنه التمييز .. » والبقاء هو الذي يعقب الفناء وهو « أن يفتى عما له ويبقى بما لله » . ويذكر الكلاباذي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ ان فناء الصوفي لا يمنعه عن فرضه . « ومن ثم تصير الاشياء كلها له شيئاً واحداً فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفته فيكون فانياً عن المخالفتات باقياً بالموافقات » (٢) والكلاباذي لا يجد ضيراً في ايراد قول ابي سعيد الخراز في الفناء « علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة الا من الله تعالى ، ثم يبدو له باد من قدرة الله تعالى فيريه ذهاب حظه من الله تعالى إجلالاً لله ثم يبدو له باد من الله تعالى فيريه ذهاب حظه من رؤية ذهاب حظه ويبقى ما كان من الله الله ويتفرد الواحد الصمد في احديته (وفي نسخة أخرى من أنتعرف : أبديته) فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء » (٣) ولكنه ككل كاتب صوفي اعتناري يحاول تفتيق العذر لتبرئة الخراز فيفسر قوله تفسيراً فقهياً فاذا ما جاء الى قوله (ويبقى ما كان لله ويتفرد الواحد الصمد في أحديته فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء) يعقل ذلك وينتقل الى عبارة اخرى في الفناء (٤) لا جهلاً بعبارة الخراز ولكنه العذر من السنة الفقهاء ومتعصبة الحنابلة ، والغريب ان كل محاولات الكلاباذي والسراج وابي طالب المكي والسلمي والقشيري لم تنفع

(٢) نفس المصدر ص ٩٢ - ٩٤

(١) التعرف للكلاباذي ص ٩٠

(٤) انظر التعرف ، ص ٩٥ - ٩٨

(٣) نفس المصدر ص ٩٥

في دفع تهمة الزندقة والحلول عن الخراز^(١) وأضراجه من صوفية بغداد وقد ذكرنا أمثلة في صفحة سابقة .

وقد اختلف صوفية بغداد في الفاني أيرد إلى بقاء الاوصاف أم لا يرد ؟ فمن قائل ان الفاني يرد لأن حالة الفناء (الجمع) لا تكون على الدوام لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات ، ومن هؤلاء القائلين برد الاوصاف أبو العباس بن عطاء الأديمي الذي « كان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه » والذي قال فيه « التصوف خلق وليس إجابة ، وما رأيت من أهله الا الجنييد وابن عطاء »^(٢) فانه يؤلف كتاباً في ذلك سماه عود الصفات وبدئها^(٣) ولكن أكثر صوفية بغداد كالجنيد والخراز والشبلي لا يرون رد الفاني الى بقاء الاوصاف^(٤) واكبر سند لقول السكلاباذي ما هو موجود في كتاب الصفاء وكتاب الضياء اللذين نحن بسبيل عرضهما مع كتب اخرى للخراز .

قصه المخطوط :

كان مقرراً لهذا المخطوط أن يرى النور على يد البرفسور آرثر جون آربري ، رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة كمبرج في انكلترا ولكن شاء القدر ان يصاب الاستاذ الكبير بعرض أبعد من مواصلة الدرس . فكان أن عرض عليّ تحقيق المخطوط على ان يكتب له مقدمة ضافية عن الخراز ولكنه اقترح عليّ بعد مدة طويلة أشرفت في خلالها على إنهاء التحقيق وضبط النص أن اقوم بالعمل وحدي فاستخرت الله وارجو ان اكون قد وفقت . فلاستاذي الكريم كل شكري وامتناني عليّ ما قدمه لي أيام سكنت ادرس عليّ يديه .

(١) انظر السكلاباذي ص ٩٢ - ١٠٠ ، السراج ٢٧٥ - ١٠٢ بالخصوص شرح كلام الشبلي وانظر القسم الضائع من فلاح الذي يروي بعضه ابن الجوزي في تبيين ابليس عن تهمة الزندقة التي وجهت للخراز ص ١٦٩ وكذلك تذكرة الأولياء . باب ٤٥ ص ٤٠

(٢) السلي ص ٢٦٥ (٣) السكلاباذي ص ٩٦

(٤) نفس المصدر والصفحة

المخطوط بالأصل محفوظ في مكتبة قسطنطيني العامة ، بتركيا تحت رقم ٢٧١٣ مجموعة ويقع ضمن مجموعة من رسائل في التصوف للترمذي وابن الوزان والقشيري وغيرهم ويبدأ من ورقة ٥٧ ب وينتهي في ورقة ٨٧ ب . وهو أول مخطوط وصفه الاستاذ أحمد آتش - رحمه الله - عند وصفه مخطوطات المكتبة (١) . وفي سنة ١٩٥٤ صورته البعثة التي أرسلها المعهد الهندي لتصوير نوادر المخطوطات في تركيا وهو محفوظ تحت رقم Reel 289 حسب الترتيب التالي :-

كتاب الصفاء	ورقة	٥٧ ب - ٦٢ أ
كتاب الضياء	«	٦٢ ب - ٦٤ أ
كتاب الكشف والبيان	«	٦٤ ب - ٧٠ ب
كتاب الفرائغ	«	٧١ ب - ٧٨ أ
كتاب الحقائق	«	٧٨ ب - ٨٧ ب

وبحكم كون البروفسور آربري أميناً لمكتبة المعهد الهندي آنذاك فقد اطلع عليه ونوى نشره فاستنسخ صورة فوتوغرافية لنفسه تفضل فأهداها إليّ .

تحتوي المخطوطة على جزئين ، الجزء الأول ويحتوي على كتاب الصفاء (٢) وكتاب الضياء وكتاب الكشف والبيان وفي منتصف الورقة ٥٧ ب كتب « الجزء الأول من كلام الشيخ أبي سعيد الخراز رحمه الله في علم الاشارات وفيه من الكتب ... » وذكر الكتب الثلاثة . وفي ورقة ٧١ أ كتب « الجزء الثاني من كلام الشيخ ... وفيه من الكتب : كتاب الفرائغ ، وكتاب الحقائق ... » والمخطوطة المعروفة حتى الآن مخطوطة وحيدة في تركيا مسطرتها ١٧ مكتوبة بخط تعليق قديم غير منقوطة في أكثر المواضع وقد عملت الرطوبة على طمس غير قليل من كلماتها ، ولم يذكر اسم ناسخها الا أن الناسخ ذكر انه استنسخها

(١) Ahmed Atas, Kastamonu Genel Kitapliginda Gubnan bazı Muhim

Arapca ve Farsca yasmalan, in Oriens, V. Leiden 1952 PP. 28-31

(٢) في الأصل : الصفاء

سنة ١٩١٥ هـ وقابلها « حسب الطاقة بالأم » (ورقة ٢٠٨ ب من المجموعة) . لذلك فهي قد استنسخت إما عن نسخة الخراز نفسه وإما عن نسخة من نسخة الخراز . ومع أن الناسخ حاول رسم كثير من كلماتها فقد استدرك على الحاشية كثيراً من هذه الكلمات التي لم تكن على ما يبدو واضحة عند انتهائه من الاستنساخ ، ولعله قد عثر على النسخة الخرازية فأنبت الاستدراك حين المقابلة ومع هذا الجهد فالمخطوطة لم تخل من هنات أشرت إليها في مكانها .

المخطوطة فريدة في نوعها وطريفة في بابها : فريدة لأنها وحيدة وهذا اكتشاف يضاف إلى المكتبة الصوفية لاستكمال جوانب دراسة المنحني الشخصي للمدرسة البغدادية في التصوف صموماً وهي إلى ذلك تلقي ضوءاً على مذهب أبي سعيد الخراز في العناء والبقاء . وهي طريفة في بابها لأن الخراز يرد في أحد أقسامها (كتاب الكشف والبيان) على من قال بأن مقام الأولياء أرفع من مقام الأنبياء . والمعروف عند دارسي التصوف أن من جملة كتب أبي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي المعاصر للخراز كتاباً اسمه ختم الأولياء وهو الذي نشر في مجلة المشرق تبعاً ونشر مستقلاً مؤخراً .

يروى الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ^(١) عن أبي عبدالرحمن السلمي « أن الترمذي نفى من ترمذ بسبب كتابين اتفهماها « ختم الولاية وعمل الشريعة » ولأنه كان يذهب إلى أن للأولياء خاتماً كما كان للأنبياء خاتماً فقالوا إنه فضل الولاية على النبوة واحتج بقول رسول الله ﷺ « يعظمهم النبيون والشهداء » وقال « لو لم يكونوا أفضل لما غبطوهم » . وفي كتاب الكشف والبيان يرد الخراز على الترمذي دون أن يصرح باسمه فيقول « أما بعد : فإن قوماً من أهل التصوف غلطوا في التمييز بين مقام الأنبياء فجعلوا مقام الأولياء أرفع من مقام الأنبياء وإنما ذلك بسبب حجابهم عن عين الحقيقة ... » ويذكر الذهبي أن الترمذي رحل إلى بلخ فأكرموه لموافقته لهم في المذهب وأنه رحل إلى نيسابور سنة

(١) تذكرة الحفاظ ١٩٧/٢

خمس وثمانين ومائتين . هذه الرواية تدلنا على أمرين الأول : ان الخراز كتب كتاب الكشف والبيان قبل سنة ٢٨٥ هـ ولعله كتبه في سنة ٢٨٤ هـ لأنه من المعقول ان يبقى الترمذي بضعة أشهر في بلخ ومن ثم يرحل الى نيسابور .

الثاني : ان الخراز مات بعد سنة ٢٨٥ هـ ، هذه الرواية تؤيد رواية تلميذه أبي القاسم ابن مروان النهاوندي التي رواها الخطيب البغدادي وهي على ذلك أصح الروايات التي رويت في وفاته (١) ولورجعنا الى كتاب ختم الأولياء لوجدنا ان الترمذي يقول : « ثم انهم يروون من الأخبار عن رسول الله ﷺ ... ان الله عبداً ليسوا بأنبياء يعبطهم النبيون والشهداء لتقربهم ومكانهم من الله ... قال قائل : أفليس في هذه الأخبار ما يدل على تفضيل من دون الأنبياء على الأنبياء ؟ قال معاذ الله أن يكون كذلك ، ليس لأحد أن يفضل على الأنبياء ... الأنبياء لهم نبوتهم ومعلمهم . قال : فلم يعبطهم النبيون وليسوا بأفضل منهم ؟ قال : قد تبين ذلك في الخبر لم ذلك : لتقربهم ومكانهم من الله » (٢) فالترمذي في كلامه هنا لا يحملنا على تصديق التهمة التي رماها بها أهل ترمذ لأنه لا يقول ذلك بصراحة . فلو فرضنا أن أهل ترمذ لم يفهموا مراد الترمذي لأنهم ليسوا صوفية فإبال الخراز وهو صوفي من كبارهم مضافاً إلى ذلك أنه معاصر للترمذي ، أرى أن يد صوفي متستر توغلت في كتاب ختم الأولياء فأضافت إليه ما أضافت وجعلت من التهمة سهماً ترد الى محور التهمين ، لأنه من المستبعد أن يرد الخراز على قول الترمذي هذا الذي لا يحمل معنى التفضيل وأن مقارنة سريعة بين كتاب الكشف والبيان وكتاب ختم الأولياء نجد الخطوط واضحة جلية في أن مراد الخراز كان رداً على الترمذي ونقطة أخرى ان الهجوري (٣) نسب للترمذي فرقة من الصوفية سماها الحكيمية . خصها بفصل كامل من كتابه يقول فيها إنهم أتباع أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي وان مأخذ قولها في الولاية منه . وكما خص الترمذي بفرقة

(١) تاريخ بغداد ٤/٢٧٨

(٢) مخطوط ولي الدين برقم ٧٧٠ ورقة ١١٣ ب

(٣) كشف المحجوب انظر من ص ٢١٠ الى ٢٤١ الطبعة الانكليزية ، ترجمة نيكسون

صوفية فالهجويري نسب للخراز فرقة صوفية أيضاً سماها « الخرازية » قالت بقول الخراز في الفناء والبقاء ؛ وعقد لذلك فصلاً كاملاً للتوفيق بين مفهوم المصطلحين دون أن يمس مفهوم المصطلحين^(١) . من كل ذلك نستطيع أن نستخلص الحقيقة التالية : أن كتاب ختم الأولياء الذي في أيدينا ليس هو الذي كتبه انترمذي وإنما قد أدخل فيه ما أدخل لنفي تهمة تفضيله الأولياء على الانبياء والافاسم الكتاب يكفي في الدلالة على غواه .

كتب الخراز :

كتب الخراز كتباً كثيرة ضاعت كلها ولم يبق منها إلا كتاب الصدق الذي نشره البرفسور آربري في كلكتا سنة ١٩٣٧ مع مقدمة قصيرة عن الخراز لم يتمكن لي الاستفادة منها حين كتابتي هذه المقدمة ، إلا أني أذكر أنه أشار الى دراسة ماسينون عن الخراز التي سوف أضمها مقالي القابلة عن المنحى الشخصي للخراز وقد أعاد الدكتور عبد الحليم محمود طبع الكتاب باسم « الطريق الى الله أو كتاب الصدق » بتحقيق سقيم ومقدمة عن الخراز أسقم منه .

وكتاب المسائل وهو يحتوي على مجموعة من الأحاديث في التصوف التي رواها بأسناده^(٢) .

وهذا الكتاب الذي نحن بصدد تقديمه . وهناك كتب أخرى لم يبق منها إلا الاسم ذكرها مؤرخو التصوف وهي :

- (١) كتاب رؤية القلوب ذكره الكلاباذي ص ٢١ و ذكره السراج ص ٤٢٨ .
- (٢) كتاب آداب الصلاة ذكره السراج واقتبس الكثير منه ص ١٥٣ .
- (٣) كتاب الوصايا أو ربما هكذا كان اسمه اقتبس السراج منه جملة وصايا ص ٢٦٤ .
- (٤) كتاب درجات المريدين : اقتبس منه السلمي في حقائق التفسير ورقة ٢ ب مخطوط كوبرلي برقم ٢٦١ ما يلي :

(١) انظر كشف المحجوب من ص ٢٤١ - ٢٤٦ الفيزية الانكليزية

(٢) ما يزال مخطوطاً في مكتبة شهيد علي بتركيا تحت رقم ١٣٧٤

« ومنهم من جاوز حد نسيان حظوظ نفسه فوقع في نسيان حظه من الله ونسيان حاجته إلى الله فهو يقول : لا أدري ما أريد وما أقوله وما أنا ومن أين أنا ، ضاع اسمي فلا اسم لي وجهات فلا علم لي وعلمت فلا جهل لي واشوقته إلى من يعرف ما أقول فيساعدني فيما أقول وإذا قيل لأحدكم ما تريد قال : الله وما علمت قال الله فلو تكلمت جوارحه لقاتل الله وأعضاؤه ومفاصله ممتلئة من نور الله المحزوظ عنده ، ثم يصيرون في التقرب إلى غاية لا يقدر أحدكم أن يقول الله لأنه ورد من الحقيقة على الحقيقة ومن الله على الله ولا خيرة (ورقة ٢ ب) .

(٥) كتاب السر ذكره ابن الجوزي نقلاً عن السراج : ولما كان كتاب اللمع الذي نشره المستشرق نيكسون ناقصاً فإنه يتبادر إلى الذهن أن السراج قد ذكره في القسم الضائع^(١) قال ابن الجوزي : قال السراج وانكر جماعة من العلماء على أبي سعيد ، أحمد ابن عيسى الخراز ونسبوه إلى الكفر بالفاظ وجدوها في كتاب صنفه وهو كتاب السر ومنه قوله « عبد طائع ما اذن له فلزم التعظيم لله فقدس الله نفسه »^(٢) بيد أن السراج يذكر قولاً مشابهاً لما أورده ابن الجوزي دون أن يذكر اسم الكتاب أو التهمة التي وجهت للخراز فيقول « قال أبو سعيد الخراز رحمه الله عبد رجع إلى الله عز وجل فتعلق بالله وركد في قرب الله فقد نسي ما سوى الله تعالى ، فأوقلت له من أنت وإلى أين ؟ لم يكن له جواب غير أن يقول الله لأنه لا يعرف سوى الله تعالى لما قد وجد في قلبه من التعظيم لله عز وجل »^(٣) وكثيراً ما يورد السراج قول صوفي في مكان وإيمده في مكان آخر مضيئاً إليه^(٤) فلربما ذكره في القسم الضائع .

وذكره فريد الدين العطار في تذكرة الأولياء ولعله نقله من اللمع قال :

« وأورا بكفر منسوب كرونده بعضي الفاظ كدر نصايف اوديدند وأن كتاب كتاب السر نام کرده جود ، معنی آن فهم نکردند یکی این بود که گفته بود : ان عبدا رجع

(١) انظر اللمع من ١٠٧ حيث ذكر نيكسون ان ستة فصول سقطت من كتاب اللمع ولم يستخرج

النور عليها

(٢) تبيس ابليس من ١٦٩

(٣) اللمع ٢٦٠

(٤) انظر مثلا الصفحات ٥٩ ، ٦٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ في حكايات عن الخراز

الى الله وتعلق بالله وسكن في قرب الله قد نسي نفسه وما سوى الله فلو قلت له من اين انت
وايش تريد لم يكن له جواب غير الله (١) .

قلنا إن ابن الجوزي كان شديد الوطأة على الصوفية وربما نقص من النص الذي أورده
السراج فان مقارنة بسيطة بين نص السراج وابن الجوزي تظهر أن قول الخراز محرف
مستور من جوانب كثيرة ومع هذا فرواية ابن الجوزي تفيدنا في إثبات أن كتاب السر
هو من تأليف أبي سعيد الخراز . ورواية فريد الدين العطار تؤيد رواية ابن الجوزي في
أصله الكتاب ومن ثم تقوى زعمنا في أن السراج ذكر الكتاب في القسم الضائع من
كتاب التمع (٢) .

مسألة أخرى لا تقل أهمية عن نسبة الكتاب للخراز وهي أن المخطوط يحمل اسماً هو
« الجزء الأول من كلام الشيخ أبي سعيد الخراز في علم الاشارات وفيه من الكتب كتاب
الصفاء وكتاب الضياء وكتاب الكشف والبيان .

وفي ورقة ٧١ أ « الجزء الثاني من كلام الشيخ أبي سعيد الخراز في علم الاشارات وفيه
من الكتب كتاب الفراغ وكتاب الحقائق » وأبو عبد الرحمن السلمي نقل من كتاب
الخراز سماه درجات المريدين والسراج وابن الجوزي والعطار نقلوا من كتاب سموه كتاب
السر . ولو قارنا النصوص التي نقلوها من هذين الكتابين مع نص كتاب الصفاء لوجدناها
منقولة بالنص من أما كن متعددة من الكتاب أف يكون اسم الكتاب : درجات المريدين أم
كتاب السر ؟؟ هذا ما سوف أوضحه في مقالة قابلة إن شاء الله عن المنحى الشخصي لشخصية
الخراز بين صوفية المدرسة البغدادية .

(١) نذر المستشرق نيكلسون ج ٢ ص ٤٠ وقد ذكره نسيفون انه بالإضافة الى ذكر العطار له فابن
الجوزي قد ذكره في كتابه « التاموس .. » انظر ص ١٢٦ ... Passaj وانظر كذلك كتاب
روزبهان بنلي ، شرح شطحيات نسر هنري كورين ص ١٧٩ .

(٢) يرد كتابه هذا المائل وتفرجه الى العظيمة ذكر لي الاستاذ نور الدين الواعظ ان كتاب التمع
نشر في مصر كاملاً وأراني نسخة منه وقد وجدت فيه ما سبق ان افترضته ، ففلاخ الواعظ جزيل
شكري وامتناني .